BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

الفكر الديني في مصر القديمة

الأستاذ الدكتور عبد الحليم نور الدين، أستاذ اللغة المصرية القديمة،
بكلية الآثار، جامعة القاهرة ومستشار مكتبة الإسكندرية

إعداد الباحث

مهاب درويش

Bibliotheca Alexandrina
مكتبة الإسكندرية
صفحة مصريات

الفكر الديني في مصر القديمة

نشأة الفكر الديني في مصر القديمة

كان للفكر المصري القديم دور مميز عن غيره من الشعوب صاحبة الحضارات القديمة، إذ اتسم المصري منذ العصور الحجرية بالتأمل والتتبع، ومحاولة فهم كل ما هو موجود في بيئته، ومحاولة إيجاد تفسير أو تبرير لبعض الحوادث والظواهر الكونية. إلا أن هناك الكثير من الأمور والظواهر التي كان من الصعب إدراكها بمدى ما توصل إليه من خبرة وحواس في بداية خطوه على درب الحضارة. ومثل هذه الأمور دفعت المصري للتدبر في بيئته، وإحساسه الفطن بوجود قوة غيبية لها من القدرة ما يفوق قدرته، تستطيع التحكم في حدوث الظواهر المختلفة.

فقد تأمل المصري قدومَ الفيضان والجفاف، ولاحظ البرق والرعد وسقوط الأمطار، وتتبع خروج النباتات من الأرض ونموها وإثمارها؛ فأدرك من خلال ذلك كله وغيره يقيناً تاماً بوجود هذه القوة المؤثرة والمدبرة في البيئة والكون، والتي لم يكن عقله يستطيع إدراكها.

ومن هنا فقد بدأ التفكير من جديد فى ماهية هذه القوة، وكيفية تصورها، وما إذا كانت خيرة نافعة (فهي تجلب الفيضان والأمطار، وتنبت الزرع)، أم شريرة مضرة (فهي تحدث الجفاف، والبرق والرعد). ومسَّ لُبَّ المصريِّ آنذاك – كما نتخيل – إحساسٌ دافئ وبارد في آن واحد، إحساسٌ بالرغبة فى المعرفة والتأمل، وآخر بالخوف والحذر.

ومن هنا فقد بدأ تبلور الخيال الخصب البنَّاء للإنسان المصري، فقد أقبل على معرفة ما يدور حوله، غير مستلسمٍ وغير مكتفٍ بما قد تبوح به الطبيعة من أسرار، وعزم على السعي لكشف كل هذه الخبايا والأسرار بعقله وتدبره، وصبره في مراقبة الأحداث والظواهر.

وبدأ المصري في رصد كل ما حوله من ظواهر كخطوة أساسية لإتمام أي بحث يقوم على أسس علمية نعرفها الآن، وتوارثت أجيالُ عصور ما قبل التاريخ هذه الرغبة الجَموح للمعرفة والاستجابة إلى تطلعات العقل الإنساني للإجابة على الأسئلة الحائرة التي طالما حثَّت خياله على الرصد والتأمل، والرؤية والتصور.

وكان لإيمان المصري بوجود هذه القوة الخفية في الطبيعة أن بدأ بخلق وسيلة للاتصال والتواصل مع هذه القوة، فكان أن قدَّر قيمة بعض الظواهر والكائنات التي تتمتع بقدرات

وخصائص تفوق تصوره؛ فتقرب إلى السماء والشمس والقمر والنجوم وهي من الظواهر الكونية التي تحمل الخير له؛ وفى الوقت ذاته تقرب من ظواهر أخرى تحمل مخاوف وأضراراً له (مثل الرعد والبرق)، وذلك أملاً في دفع هذا الضر.

كما أنه ارتأى الخير في بعض الحيوانات والطيور (لا سيما الأبقار، والأرنب، والنعام)، بينما ارتأى الشر في البعض الآخر (مثل الأسد، وابن آوى، والصقر، والثعبان، والتماسيح). كما أظهر إعجاباً وتقديراً لبعضها (كالصقور والنسور التي تستطيع أن تحلق في آفاق بعيدة في السماء). ومن هذا المنطلق بدأت فكرة التقديس، وكان ذلك بمثابة خطوة أولى أساسية لرسوخ العقائد المصرية القديمة في العصور التاريخية.

وبدأ المصري في أداء التقدمات من القرابين إلى ما قدسه من الصور الحية لهذه الظواهر أو الكائنات. ولم يلبث أن صاحب هذه التقدمات أداء بعض الحركات والرقصات، والتي كانت نواة أولى لما عُرف بعد ذلك من طقوس وشعائر عبادة.

وقبل أن نستطرد في الحديث عن عقائد المصريين القدماء، نود طرح سؤال هام عن سبب عبادة المصري القديم للحيوانات والطيور والزواحف والأشجار وغيرها من الموجودات، وعما إذا كان قد عبدها لذواتها، أم على اعتبار أنها تمثل قوىً خفية لم يستطع أن يدركها بآفاقه المحدودة في أولى مراحل حياته.

وتشير الظواهر إلى أن المصري لم يعبد هذه الموجودات لذاتها، وإنما على اعتبار أن القوى الخفية التي يدركها متمثلة فيها. وبكلمات أخرى فإن الموجودات التي عبدها المصري هي بمثابة رموز أرضية لهذه القوى الخفية التي لا تعيش معه على الأرض. والدليل على أن المصري لم يعبد هذه الموجودات لذاتها هو أنه كان يذبح البقرة، ويقتل التمساح والثعبان، برغم أنها كانت رموزاً لمعبودات قدسها على مر العصور.

وحين عرف المصري استخدام الأواني المصنوعة من الفخار وأدوات الزينة، بدأ في تصوير بعض تصوراته العقائدية على هذه الأدوات. وتمثل ذلك التصوير البدائي في بعض الرموز والعلامات، والتي كان من الصعب فهم بعضها، واستمر البعض منها في العصور التاريخية المختلفة.

وقد استخدمت بعض هذه الأدوات في نقش رسوم وزخارف على جدران بعض الكهوف التي سكنها الإنسان قبل نزوله إلى الوادي، والتي حملت الكثير من أفكار هذا الإنسان، شأنه شأن غيره من شعوب العالم القديم في عصورها الحجرية البدائية.

وقد تطور هذا الفكر بشكل مذهل، إذ سبق الإنسان المصري غيره في الاعتقاد بوجود حياة ثانية تتمثل في البعث بعد الموت، فكان إيمانه بذلك بمثابة خطوة مذهلة في تفكيره في هذه الفترة المبكرة من التاريخ، كان لها الدور الأكبر في قيام كيان عقيدة وفكر ديني ذي باع كبير، لعب دوراً بارزاً في بناء حضارة هذا الشعب الذي ارتبط بشكل وثيق بعقائده الدينية.

كما كان لهذه العقيدة الراسخة الأثر الأكبر والأهم في حفظ كل ما وصلنا عن هذه الحضارة؛ إذ كان اهتمام الإنسان المصري القديم عبر العصور التاريخية بحياته الأخروية دافعاً له لمحاولة إمداد قبره بكل شيء. وقد كان ما سجله بداخله من نقوش ومناظر، وما حفظ به من أثاث جنزي، بمثابة أرشيف عظيم حفظ لنا تاريخ أقدم وأعظم الحضارات على وجه الأرض.

إن الديانة والفكر الديني هما مركز الثقل في الحضارة المصرية القديمة، فلولا إيمان المصري بأنه يعيش لفترة مؤقتة ويموت لفترة مؤقتة، ثم يبعث من جديد حياة أبدية خالدة، لولا هذا الإيمان لما ترك لنا المصري القديم كل هذه الإبداعات من أهرامات ومعابد وفنون وآداب وعلوم، وهي إبداعات بذل فيها كل الجهد، وأعمل فيها كل الفكر من أجل أن تكون حياته الثانية الأبدية كاملة غير منقوصة.

ولأن العقائد هي تعبير عن فكر الإنسان الديني والسياسي والاجتماعي، ولأنها كانت جوهر حياة الإنسان المصري الأولى والثانية، ولأنها تعايشت مع الإنسان المصري لآلاف السنين، وخضعت لبعض المتغيرات التي مر بها مجتمعه، سياسيةً كانت أم دينية أم اقتصادية أم عسكرية؛ لذلك اتسعت دائرة تناولنا لهذه العقائد لتشمل كل ما يتعلق بالفلسفة الدينية، ونتاجها الفكري والروحي؛ وهذا ما نحاول إلقاء الضوء من خلال هذه المحاضرة تزامنا مع ما وفقنا الله عز وجل من إخراجه في عمل متميز ألا وهو كتابنا عن الديانة المصرية القديمة[1].

[1] **راجع: عبد الحليم نور الدين**، الديانة المصرية القديمة، الجزء الأول (المعبودات)، القاهرة، 2009.

فكرة الأرباب

من منطلق فكره الديني، فقد تصور المصري القديم حتمية وجود ربوبية تعكس طبيعة الظواهر المختلفة المحيطة به، وقد تنوعت هذه الربوبية وتعددت بتعدد الظواهر المحيطة به، واختلاف هذه الظواهر من مكان لآخر ومن وقت لآخر، بل واختلاف الزاوية أو المنظور الذى نظر منه المصري لهذه الظواهر.

وكان لكثرة وتنوع هذه المعبودات التي قدسها المصري القديم، واختلاف طبيعة هذه المعبودات واحداً عن الآخر، علاوة على نظرة المصري نفسها للكون حوله والبيئة المحيطة، وما انعكس من هذا التأمل والتدبر العميق؛ لذلك كان أن تصوَّر المصري معبوداً خاصاً لكل ظاهرة من الظواهر، واختلف مسمى هذا المعبود أحياناً بين منطقة وأخرى. وفي أحيان أخرى تسيَّد معبودٌ بعينه تصوُّرَ المصريِّ في كافة أرجاء الدولة.

كما كان لطبيعة تكوين المجتمع المصري القديم دور أيضاً في تصنيف هذه المعبودات، فهناك معبودات ارتبطت بنطاق محلي محدود، وأخرى تسيدت سائر البلاد. إلا أن الفكر الديني وتصوُّر المصري لحياةٍ أخرى بعد البعث، فضلاً عن تخوف المصري من بعض الظواهر أو حبه لأخرى، وإيمانه بالسحر – كل ذلك أدى إلى ظهور تنوع وتشعب واسع للمعبودات المصرية.

ويمكن أن نصنف هذه المعبودات إلى: (المعبودات الكونية، والمعبودات الرسمية، والمعبودات المحلية، وآلهة الموتى والجبانة، وآلهة العالم الآخر). بل إن الأجدر بالتدقيق في هذا الأمر هو أن هذه المعبودات لم تخضع لتصنيف واحد وواضح، إذ إنه كثيراً ما نجد لمعبود واحد أكثر من طبيعة وأكثر من دور، وأدى ذلك إلى إمكانية اشتراك معبود واحد في أكثر من تصنيف من هذه التصنيفات.

فقد صُنفت بعض الآلهة والمعبودات كآلهة كونية، والبعض الآخر صنف على أنه معبودات محلية؛ ويرجع ذلك في الأغلب إلى طبيعة هؤلاء الأرباب وأدوارهم، وما تمتعوا به من نصيبٍ رفع شأن بعضها عالياً، أو حصر شهرة ومكانة معبودات أخرى في منطقة بعينها دون غيرها، وذلك كأن يُدمج معبودٌ ما في مذهب ديني معين، أو يُربط بعلاقة مع الملكية أو عاصمة الحكم، أو أن تسهم صفة من صفاته في رفعة شأنه بشكل أو بآخر، وذلك كما هو في حالة "حور" (حورس) كربٍّ كوني سماوي في صورة الصقر، وكابنٍ للمعبود "أوزير" (أوزيريس)، وكوريثٍ للعرش وإلهٍ رسمي للدولة، أو كمعبود محلي لبعض المقاطعات والمدن.

ومثل ذلك نجده في حالة المعبود "رع" (رب الشمس) الذي أُدمج في نظرية "عين شمس" كربٍّ خالق، وارتباطه بالشمس ودورتها كإلهٍ كوني. وكذلك نجد كلاً من "آمـــون"، و"مـــين"، و"حتحور"، و"نوت"، وغيرها من الأرباب التي لعبت دوراً محورياً في عقيدة المصري القديم، حيث انطلقت من عبادتها المحلية الضيقة لرعاية الملك، وصولاً إلى العالمية أو الكونية.

غير أن الفيصل الرئيس في هذا التصنيف هو ارتباط هذه المعبودات بظواهر وطبيعـــة كونية، كالشمس، والقمر، والنجوم، والسماء، والهـــواء، والأجـــرام، أو انحصـــار ربوبيتهـــا وعبادتها في نطاق إقليمي ضيق، كارتباط تقديسها وعبادتها بإقليم، أو مدينة، أو قرية، فلا تكاد عبادة مثل هذه المعبودات تتعدى حدودها المحلية هذه.

وأحياناً ما تكون هذه المعبودات المحلية صوراً محلية مصغرة لمعبود أكبر، ولعل أكثر المعبودات التى عُبدت فى صور وأشكال محلية الربة "حتحور"، والمعبود "حور" (حـــورس)، وذلك بخلاف كونهما من المعبودات الرسمية.

ويمكن قياس ذلك على الكثير من الأرباب المصريين، وهو ما دفعني لمحاولـــة وضـــع تصور عام يحدد معالم هذه الطبيعة الإلهية التي يمكن أن نصنف تحتهـــا كافـــة المعبـــودات المصرية، استشهاداً ببعض الأمثلة في كل تصنيف، وتوضيحاً لطبيعة وخصائص كل منهـــا، وذلك في الجزء الأول من كتابي عن الديانة المصرية القديمة (المعبودات)[2].

وفيما يتعلق بالهيئات التي صورت بها المعبودات المصرية المختلفة، فقد تنوعت هذه الهيئات بين هيئات آدمية، أو هيئات حيوانية خالصة، أو هيئات مركبة جمعت بين الهيئة الآدمية والحيوانية، أو هيئات الطيور والحشرات. وقد تباينت المسببات وراء هذا التنوع والاختلاف وفقاً لطبيعة كل معبود، ونظرة المصري له. إلا أن المبدأ المشترك في تكوين هذه الهيئة أو تلك قد تمثل في نظرة المصري لبعض الخصائص التي ترتبط بالحيوان أو الطائر مما ارتقى به إلى مرتبة التقديس.

فكان المصري يقدس بعضها أملاً في الاستفادة من صفات طيبة فيها، وذلك مثل البقرة التي كانت رمزاً للأمومة والعطاء، وذلك لما رآه من رعاية البقرة لرضـــيعها، ولمقـــدار مـــا يحققه الإنسان من الاستفادة منها.

[2] **راجع: عبد الحليم نور الدين**، الديانة المصرية القديمة، الجزء الأول (المعبودات)، القاهرة، 2009، الفصل الأول.

كما قدس المصري بعض الحيوانات اتقاء شر أو ضرر يقع منها، مثل حيوان "ابن آوى" الذي كان ينبش القبور، ويفتك بجثث الموتى. كما قدس المصري بعض الحيوانات لصفات القوة والقدرة الخاصة التي يتصف بها هذا الكائن أو ذاك، مثل الصقر لقدرته على الطيران والتحليق، ودقته في الانقضاض على فريسته.

كما كان تقديس بعض الحيوانات لطبيعتها المميزة في أمر من الأمور، كالثعبان والضفدعة ككائنين برمائيين يستطيعان الحياة في الماء والبر معاً، وقدرتهما على التكاثر والتجدد. فقد لوحظ أن الثعبان يستطيع تغيير جلده، فظنوا بذلك أنه يولد من جديد. والضفدع يقوم بالبيات الشتوي، ثم يعود ويتكاثر بشكل كبير خلال فصل الصيف. وغيرها من الصفات والميزات التي تميز كل كائن، والتي استطاع المصري التعرف عليها بالملاحظة الدقيقة، والتتبع عبر العصور الطويلة منذ عصور ما قبل الأسرات.

وقد قدس المصريون هذه الكائنات منذ عصور ما قبل الأسرات وفقاً لأقدم الأدلة والشواهد الأثرية التي تؤكد ذلك. وقد صوروا معبوداتهم في صور بعض هذه الكائنات بهيئة خالصة، أو هيئة مزدوجة أو مركبة بين أكثر من كائن، أي بين إنسان وحيوان، أو إنسان وطائر، أو مع بعض الحشرات والزواحف. ولكنهم حرصوا كل الحرص على أن يكون هذا التركيب أو المزج مقبولاً من حيث الشكل الفني.

ونود الإشارة إلى أن المصريين لم يكونوا وحدهم من عرف تقديس وتأليه الحيوانات والطيور، أو تصوير معبوداتهم أو أربابهم في هيئات بعض منها، ولكن شاركهم فى ذلك أيضاً أصحاب الحضارات القديمة الأخرى، مثل العراق، واليونان، والرومان.

ولكن يجب أن نتوقف عند نقطة هامة، ألا وهي ملاحظة أن أيًّا من هذه الحيوانات والكائنات المتعلقة بتصوير المعبودات لا تعطي أية معلومات عن الصورة الحقيقية للمعبود. فإن هذه الصورة الحقيقية –طبقاً لما ذكرته النصوص الدينية– هي صورة خفية وغامضة تكتنفها الأسرار، ولا يمكن لأحد أن يحيط بمدى ثراء وعمق طبيعته.

وتشير "نصوص التوابيت" إلى أن المتوفى فقط هو الذي يعرف الصورة الحقيقية للآلهة[3]. وكل صورة أو هيئة يصور بها المعبود هي وسيلة غير تامة لجعل المعبود مرئياً، وإبراز صفات طبيعته، وتمييزه عن بقية المعبودات.[4]

[3] ***CT*** VI, 69C, 72d.

ومن النادر أن يصور المعبود في صورة أو هيئة واحدة ثابتة، ولكن غالباً ما يجسَّد المعبود الواحد في أكثر من صورة، كل منها تعطي تعبيراً قوياً عن طبيعة وحقيقة المعبود المرئي، وإن اتسم ذلك التعبير بالمحدودية والنقص. وهذا النقص هو القاعدة في الصور المتعددة للمعبودات المصرية التي تشابه تعدد أسمائها؛ لأن الاسم أيضاً يمكن أن يعبر عن مظهر واحد فقط من الطبيعة المركبة للمعبود.

وهذا التعدد في الأشكال والصور انعكس مردوده حكماً بالحيرة والصعوبة في تصوير المعبودات المصرية؛ وعلى ذلك فمن النادر أن يتقيد معبود هام بشكل أو مظهر واحد، حيث إن المعبودات الكبرى تتمتع بالثراء في مظاهرها، وبما يتوافق مع نعتها بصفات تتطابق مع ذلك. ومن المعبودات التي تتمتع بالتعددية في الصور والهيئات –مثلاً– "آمون رع"، و"مين"، و"چحوتي"، و"حتحور"، و"إيزيس".[5]

هذا وقد اتسم البعض منها بثبات في الهيئة الخاصة به، مثل "أنوبيس" في هيئة "ابن آوى"، و"تا ورت" في الهيئة المركبة من التمساح والأسد وفرس النهر[6].

وما ينبغي لنا أن نتعرض للمعبودات المصرية القديمة فى ظل الفكر الدينى للمصرى القديم، دون أن يستوقفنا موضوع على درجة كبيرة من الأهمية والحساسية، ألا وهو **مجامع الأرباب وفكرة المعبود الأوحد وتعدد الربوبية:**

فقد ظهرت الإشارة بصيغة المفرد (رب، إله)، والجمع (أرباب)، وذلك منذ بداية الأسرات، وخلال مختلف العصور التاريخية القديمة. وصيغة الجمع هذه إما تشير إلى عدد محدد من المعبودات (كأرباب مكان، أو بلد، أو مجموعة معبودات ما)؛ أو تشير إلى المجموع الكلى للأرباب غير المحددين فعلاً.

فقد عرف المصريون الرب الواحد الذي يُعبد في منطقة بعينها، أو على مستوى مصر كلها؛ وعرفوا أيضاً ما يسمى بمجمع الأرباب، أي ما زاد عن رب واحد أو ربة، حيث أفرزت لنا العقائد المصرية "الثالوث"، وهو أكثر مجامع الأرباب انتشاراً؛ ثم "الرابوع" (أربعة من الأرباب والربات، أو كلها معاً)؛ ثم "الثامون"؛ و"التاسوع" الصغير، و"التاسوع" الكبير.

---

[4] إريك هورننج، ديانة مصر الفرعونية، الوحدانية والتعددية، ترجمة: محمود ماهر طه (القاهرة، 1995)، ص124–125.

[5] إريك هورننج، ديانة مصر الفرعونية، الوحدانية والتعددية، ص125–126.

[6] راجع: عبد الحليم نور الدين، الديانة المصرية القديمة، الجزء الأول (المعبودات)، القاهرة، 2009، الفصل الأول.

وقد ظهرت في بعض المعابد عبادة مجموعة من المعبودات، ولكنها لا تمثل مجمعاً من هذه المجامع؛ ومنها على سبيل المثال مجموعة الأرباب في معبد "سيتي الأول" في "أبيدوس" (العرابة المدفونة، مركز البلينا، محافظة سوهاج)؛ وهم: "أوزير"، و"إيزة"، و"حور"، و"آمون رع"، و"بتاح"، و"رع"، و"حور آختي". ومجموعة الأرباب في معبد "أبو سمبل الكبير"، وهم: "آمون رع"، و"بتاح"، و"رع حور آختي".

كانت هذه المجامع تمثل أهمية خاصة في الديانة المصرية القديمة، وفي فلسفتها الفكرية الواسعة، إذ لعبت العلاقات بين الأرباب المختلفة من هذا المنطلق دورا كبيرا في تكوين شخصية كل معبود وتحديد أهميته وطبيعة دوره كمعبود ذي دور محوري أم محدود، وذلك فضلاً عما سبق ذكره من تصنيفات لطبيعة الأرباب والمعبودات المصرية المختلفة، وأستطيع القول إن من فهم جيداً هذه التصنيفات لطبيعة المعبودات ومجاميعها، بات من السهل عليه الخوض في فلسفة الديانة المصرية وفكرها الديني[7].

فقد عرفت الديانة المصرية الفرديةَ والتعدديةَ في تصوير المعبودات. وقد جمع الفكر الديني المصري القديم بين عقيدة الرب الواحد الفرد، وبين تعددية الأرباب وصورها المختلفة، وذلك بدون تضارب أو خلاف.

فقد وجهت النصوص في الكثير من النداءات بصيغة الرب الواحد، في حين أنها تضمنت في باطن الأمر الإشارة إلى معبودات مختلفة وفقاً لكل فرد. فعادة ما يكون الرب الواحد في نظر المتحدث هو رب مدينته أو مقاطعته، أو رب المعبد الذي يوجد فيه.

وقد ثار جدل ونقاش واسع بين مختلف الباحثين حول التوحدية أو التعددية في الفكر الديني للمصري القديم، ونخرج منه بأن المصري نفسه قد اعتقد في وجود رب واحد كبير، وفي وجود أرباب آخرين متعددين يمثلون صوراً وأشكالاً لهذا الرب الواحد، أو كانوا شركاء له. أي أنه اعتقد في أن المعبودات المتعددة هي مجرد مظاهر للرب الواحد. وقد اعتقد المصري في عبادة رب أعظم، مع وجود أرباب آخرين.

وقد عرفت كلمة "رب" المفردة في النصوص منذ بداية العصور التاريخية، وتواتر ظهورها في النصوص عبر مختلف العصور، وإن صعب من خلالها الجزم بإيمان المصري بالوحدانية وفردية الإله، أم أن الأمر هنا كان له صلة بمعبود معين، كرب المدينة أو المقاطعة وفقاً لمضمون النص. ومن ثم يصعب الأخذ به كدليل مباشر على الوحدانية.

---

[7] **راجع: عبد الحليم نور الدين**، الديانة المصرية القديمة، الجزء الأول (المعبودات)، القاهرة، 2009، الفصل الثالث.

كما أن صيغة الجمع للكلمة "أرباب" قد عرفت أيضاً على مر العصور، وبدون تعارض مع الصيغة المفردة للكلمة. وإن كان قد وجد الاستعمال المطلق لكلمة (رب، إله) في النصوص الأدبية، لا سيما أدب الحكم والوصايا الأخلاقية[8].

الرمزية[9]

ما كان لنا أن نتحدث عن الفكر الديني للمصري القديم وماهيته، وعن مدى ما توصل له الإنسان المصري من وعي ديني وتصوف، دون أن نتعرض إلى بُعد من أهم أبعاد العقيدة والفكر القديم، ألا وهو فكرة ومفهوم الرمز والرمزية. وذلك في محاولة لإعطاء تعريف دقيق لمعنى الرمزية عامة ومدلول الرمز ومدى علاقته بالمرموز إليه في الفكر الديني المصري القديم.

فقد لجأ المصري لاستخدام الرمز والعلامة من أجل التعبير بإيجاز عن كل ما لا يستطيع التعبير عنه أو فهمه بوضوح. ويلاحظ أن الرمزية لم يقتصر دورها واستخداماتها على الجوانب العقائدية للمصري، وإنما توغلت وامتدت استخداماتها في شتى جوانب الحياة والمعرفة ما بين الأمور السياسية وفي الفنون والعمارة وفي السحر والأساطير والحياة واللغة والأدب وغيرها من جوانب الحياة[10].

الرمز هو "**عبارة تطلق على شي أمرئي يمثل للذهن شيئاً غير مرئي، لما بينهما من تشابه**"، وذلك وفق أحدث تعريفات دائرة المعارف البريطانية. والرمز بمثابة الصورة التي تمثل الفكرة. ويستخدم الرمز عامةً للتعبير عن تلك المسائل والأمور التي قد يصعب التعبير عنها حرفياً بوضوح. ويشترط وجود علاقة خفية وثيقة بين الرمز والمرموز إليه[11].

وفي ضوء ما استعرضناه في هذا العمل وغيره من أعمال في علم الآثار والحضارة المصرية القديمة، نستشف أن الرموز قد لعبت دوراً هاماً في حياة وفكر المصري، وارتبط في ذلك بكل ما يحيط بالمصري من طبيعة بظواهرها الكونية المختلفة، ثابته كانت أم متغيرة، ومتقلبه كالجفاف والسيول والرعد والبرق وخسوف الشمس أو كسوف القمر. وهكذا فإن

---

[8] **راجع: عبد الحليم نور الدين**، الديانة المصرية القديمة، الجزء الأول (المعبودات)، القاهرة، 2009، الفصل الثالث.

[9] **راجع: عبد الحليم نور الدين**، الديانة المصرية القديمة، الجزء الثالث (الفكر الديني)، القاهرة، 2009، الفصل الثامن.

[10] **Wilkinson, R.,** *Symbols & Magic in Egyptian Art,* 7-11ff.

[11] **منى زهير الشايب**، الرموز المقدسة في أدوات التزين في مصر القديمة حتى نهاية عصر الدولة الحديثة، رسالة ماجستير غير منشورة، القاهرة 1999، ص1 وما يليها من صفحات.

المصري قد استمد رموزه من البيئة المحيطة به، بحيث يسهل له فهمها من خلال الربط بينها وبين ما رمز إليه.

كان تفكير وتمحيص المفكر المصري القديم له الأثر البالغ في انتهاجه منهج الرمزيـــة، وذلك حيث إن المصري قد حاول إيجاد تعليل وتفسير لكل ما يحيط به في بيئتـــه المحيطـــة، ولكل ما يحدث في الطبيعة من ظواهر وأحداث، وكان ميل المصري في تفكيره – بعيدا عن الطرق البحثية التي تستند على المقاييس والحسابات أو التحليل والتفسير – إذ مال في تفسيره لمحاولة إيجاد أسباب لا تستند على المنطقية والسببية، وإنما على الخيال والتأمل، و لذلك أوجد لكل ظاهرة وكل تساؤل دار بذهنه سبباً غلب عليه الخيال والرمزية. ولذلك ترك لنا المفكـــر المصري حصيلة غزيرة من الرموز.

فلم يقبل بالآراء المنطقية لنشأة الكون وخلق البشر، فكان أن أوجد تفسيرات وتصورات عديدة في ذلك – سوف نتحدث عنها. وحاول خلق قداسة ومكانة خاصة لملوكهم، فقالوا بأنهم من سلالة الآلهة. ونظروا للكون والطبيعة من حولهم فأعطوا تفسيرات لهـــا، وخلقـــوا منهـــا رمزية تساعد في فهم الكثير من الأمور التي يصعب على العقل المجرد إدراكها.

فقد فسروا غياب الشمس ساعات الليل بأنها تعبر العالم الآخر لتنير ساكنيه. وكان لغياب الشمس بين الجبال أن تخيلوا هذا العالم الآخر بالعالم السفلي، وحول كيفية مرور الشمس فـــي كلا العالمين أن تخيلوها تعبر في مركبين أحدهما للنهار والآخر للرحلة الليلية، إلى آخره من التصورات الرمزية، والتي حاول فيها المصري بقدر كبير أن يربطه ببعض مـــن معتقداتـــه الدينية، أو أن يتخذها دعماً وسنداً لبعض هذه المعتقدات. ويمكننا أن نقول ما نشأ بهذا الصدد وبما قد لا يسع المجال لسرده، ولكن يمكن للمتمحص أن يلحظه في شتى مجالات الحضـــارة المصرية القديمة.

صور المصري آلهته في هيئات مختلفة بين الهيئة البشرية والحيوانية وهيئات الطيور والزواحف والأسماك أو هيئات تجمع بين مزيج من الهيئة البشرية والحيوانية أو غيرها، وذلك ربما ليرتقي بالآلهة لمكانته العالية التي ترتفع عن البشر والحيوان. وكان تجسيد وتصوير إله ما في هيئة حيوانية يستند على صفة أو صلة بين الإله وبعض خصائص هذا الحيوان الشكلية والوظائفية، إلا أن الهام في هذا التمثيل أن هذه الحيوانات قد وقرت وقدست كرمز لهذه الآلهة.

فنجد تقديس الكبش كحيوان مقدس لآمون وخنوم، الصقر كطائر مقدس وصورة لحورس بكل صوره ومونتو، البقرة كصورة لحتحور وحسات ونخبت وواجيت ونوت وغيرهـــا مـــن الربات في هيئة البقرة، الجاموس كحيوان مقدس للربة "بات"، العجل لـــ"أبـــيس"، والتمســـاح

كحيوان مقدس للمعوبد "سوبك"، والقرد وطائر أبو منجل كتجسيد للإله "جحوتي"، وغيرها من الحيوانات والطيور. وكان أن خصصت أماكن لتربية بعض هذه الحيوانات في معابد الآلهة، مثل أحواض تربية التماسيح في الفيوم وكوم أمبو.

وبعيداً عن الهيئة الحيوانية الصريحة للمعبود فقد رمز لبعض الآلهة برموز وعلامات يصعب فهمها بسهولة، ارتبط كل منها بمعبود ما وفق أسطورة أو حادثة أو علاقة ما، استلزم فهمه دراسة هذا الرمز والإله المرموز إليه به. كأن يرمز بعمود الجد لأوزير، عقدة التيت لإيزة، المنيت والصلاصل لحتحور وغيرها من الرموز التي ارتبطت بآلهة بعينها دون غيرها. فإذا ما رأينا عامود الجد، نستشف أن الحديث هنا عن أوزير وإذا ما وجدت الصلاصل أو عقد المنيت فبالتأكيد المراد هنا هو الإشارة أو الرمز للإلهة حتحور.

وقد تشعبت الفروع التي دخلت فيها الرمزية – كما سبق أن تحدثنا – بحيث لا يخلو فرع من فروع المعرفة لدى المصري القديم منها. فدخلت الرمزية في السحر والأدب واللغة والعمارة والفن والملكية وغيرها. فالمقبرة مثلاً كبناء ترمز للعالم الآخر، والعين الحمراء ترمز للشر والسحر الأسود، أما التاج فيرمز للحكم والملك. كذلك في الفن فتصوير الملك ممسكاً بالمقمعة وناصية أحد أعدائه يرمز لقهر الأعداء والانتصار عليهم، وتصوير الأقواس التسع أسفل قدميه يرمز لإخضاع العالم بأسره تحت سلطانه. وتقديم قربان ماعت يرمز لإقامة العدالة والحق في الحكم وفق رغبة الآلهة.

الأساطير[12]

يعد من أوائل التعاريف التي عرفت الأسطورة حتى الآن هو استخدام عرب الجاهلية لفظة "الأساطير" بمعنى" الأباطيل"، وهم يقصدون بها القصص التي لا يوثق من صحتها. ثم أكد القرآن الكريم المفهوم الجاهلي للفظة "أسطورة" فذكرها تسع مرات حاملة لنفس هذا المعنى:[13] "**إن هذا إلا أساطير الأولين**" **الآية 83 سورة "المؤمنون"**

والأسطورة ليست إلا تراثا بشريا يحمل تفسيرا لمعنى أو شعوراً بالذات عند شعب من الشعوب[14]. وتنتمي الأسطورة إلى أشكال الحضارة القديمة، وترجع إلى مرحلة سابقة على

---

[12] راجع: عبد الحليم نور الدين، الديانة المصرية القديمة، الجزء الثالث، القاهرة، 2009، الفصل الأول، والثاني.

[13] أحمد شمس الدين ألحجاجي، "الأسطورة في المسرح المصري المعاصر"، الكتاب الأول مصادر الأسطورة في المسرح، 3.

[14] إبراهيم شعراوى، "الخرافة والأسطورة فى بلاد النوبة"، 72.

العلم والفلسفة، فهي تفسر بمنطق العقل البدائي ظواهر الكون والطبيعة والإنسان[15]. وتعتبر أصدق تعبير عن فلسفة الحضارة لتراثنا القديم فهي بمثابة الشكل الجمالي الذي يمدنا بالأحاسيس والصور والخيالات والعقائد التي كانت سائدة في الأذهان في الزمن القديم.

النظريات المختلفة حول تفسير الأساطير

وقد اختلفت الآراء في تفسير الأساطير اختلافاً بلغ حد التعقيد ويمكن رد هذه الاختلافات إلى أربع نظريات:

النظرية الأولى: "النظرية الطبيعية"

وترى أن الأساطير نشأت ليفسر بها الإنسان الأول ما يصادفه من الظواهر الطبيعية التى يخاف منها، ويعجز عن تفسيرها كالصواعق، والرعد، فبينما يلاحظ الإنسان القديم نظام الكون كان يمتلئ بالعجب وحب الاستطلاع أحياناً، وبالرعب والفزع في أحيان أخرى، وبدلاً من أن يفسر هذه التغيرات تفسيرًا طبيعيًّا كما يحدث الآن، فسرها تفسيرًا دينيًّا.

النظرية الثانية: "نظرية التفسير الديني"

وترى أن الأساطير في أصلها مجموعة من القصص الديني عرفتها الشعوب على مر الأيام، وورد ذكرها عند كل شعب في كتبه الدينية أو على لسان كهانه ثم أضيف إليها أو حرف أصلها الديني حتى خرجت عن مجرد الحقيقة الدينية إلى الأسطورة.

النظرية الثالثة: "نظرية التفسير التاريخي"

ترى أن أبطال الأساطير كانوا في الأصل بشراً حقيقيين، عاشوا على الأرض وقاموا بأعمال عظيمة، ثم نسج حولهم الخيال الشعبي على مر العصور قصصاً نسبت إليهم أعمالاً خارقة، وجعلت منهم مزيجاً من الآلهة والإنسان تارة، أو رفعتهم عن منزلة الإنسان الطبيعي تارة أخرى، فأتوا بالأعمال الخارقة.

[15] محمد عصمت حمدي، الكاتب العربي والأسطورة، المقدمة (عثمان نوير)، 5.

النظرية الرابعة: "نظرية التفسير الرمزي"

وترى هذه النظرية أن الأسطورة كانت تعبر بطريقة رمزية عن فكرة دينية أو خلقية أو اجتماعية أو فلسفية، ثم فقدت مع مرور الزمن معناها الرمزي واحتفظت بالمعنى الحرفي.

وعند الحديث عن الأساطير نجدها تنقسم إلى العديد من الأنواع، والتي تمثلت أو تواجدت في مصر القديمة:

أساطير طقسية: معظم نصوص هذا النوع من الأساطير كانت معرفتنا بها عن طريق الكتابات والنصوص المسجلة في المعابد.

أساطير الخير والشر[16]: تلك التي تتحدث عن الخير والشر والصراع الدائم بينهما.

وفى مصر القديمة نجد أن هذا التقسيم يجري بها شأنها شأن الشعوب القديمة. وإن فُضل وضع تقسيم الأساطير في مصر القديمة إلى طرز مختلفة ومتنوعة، حسب ما يلي:-

1- **أساطير الأرباب:**- وهي تلك التي تتحدث عن حكايات وقصص الآلهة.

2- **أساطير نشأة الكون:**- أو نظريات ومذاهب الخلق ونشأة الكون. وهي التي تتحدث عن بدء الخليقة، وهي تمثل أهمية خاصة في التعبير عن أفكار وتصورات المصري القديم.

3- **الأساطير ذات المغزى الفلسفي:**- وهي التي تحتوي على رمز فلسفي في مضمونها.

4- **أساطير الغرائب والمعجزات:**- وهي تلك الأساطير ذات المغزى السحري، والتي تتحدث عن الأفعال الخارقة للطبيعة. ومن أمثلة هذا النوع من الأساطير:
"عقارب ايزة"[17]، و"الجزء الثاني من قصة (أسطورة) الأخوين"[18].

5- **الأساطير التي تمجد القوة:**- وهي تلك التي تتحدث عن قوة أو مجد إله أو بطل أسطوري.
وهذه الأساطير تتحدث عن قوة إله معين، ومنها أسطورة اسم "رع" الخفي[19].

---

[16] S. H. Hooke, *Middle Eastern Mythology*, 11, 14, 15.

[17] **Müller**, *Egyptian Mythology*, 73.

[18] – راجع: عبد الحليم نورالدين، الديانة المصرية القديمة، الجزء الثاني، القاهرة 2009، ص .... .

6- **الأساطير السياسية:**- وهي تلك التي تخدم هدفاً سياسيًّا والغرض منها خدمة أغراض وأهداف ملك ما.

و**أساطير الأرباب**[20]؛ هي كل ما وصلنا من أساطير تتحدث أو تدور أحداثها حول الأرباب وقصصهم ومغامراتهم، والصراعات بينهم. أي أن هذه الأساطير قد دارت بشكل أساسي في فلك واحد حول طبيعة وشخصيات الأرباب والمعبودات المصرية القديمة والعلاقة بينهم، والتي تصورها المصري القديم بوحي خياله الخصب على هيئة ربوبية تتحكم في مقدرات وقوى الطبيعة المحيطة ومظاهر الكون المختلفة، لاسيما النجوم، السماء، الشمس، القمر، الهواء، العواصف، والأرض، والرياح والنور، إلخ. وكذلك مظاهر البيئة المحيطة بالإنسان بشكل مباشر، أي تلك البيئة التي يقطنها الإنسان على الأرض. وكان عادة ما يلجأ في مثل هذه الأساطير والقصص إلى تصوير هذه القوة التي غالباً ما تكون غيبية بالنسبة له – رغم كونها قوى محسوسة وملموسة أحياناً – برموز حسية يتقبلها الإدراك البشري المحدود.

ومعلوماتنا عن هذه الأساطير والعصور التي حيكت فيها، تعد بحق ضئيلة وغير مكتملة، ذلك لأن معظم هذه الأساطير قد صيغت في الأصل في عصور سبقت معرفة الكتابة والتدوين كما سبق أن أشرنا. غير أن القليل من الإشارات النصية المباشرة وغير المباشرة قد وصلت إلينا من نصوص الأهرام والتوابيت من عصر الدولتين القديمة والوسطى، ولكن أفضل الصور التي وصلت إلينا لهذه الأساطير قد بدأت تسجل بالفعل منذ عصر الدولة الحديثة، خاصة في الأسرات التاسعة عشرة والعشرين، ثم خلال أسرات العصر المتأخر والعصر البطلمي.

وقد وصلت إلينا هذه الأساطير في صورة نصوص ومشاهد أسطورية مختصرة على جدران المعابد والمقابر، وكذلك على بعض لفائف البردي. ويلاحظ أن الفنان أو المفكر المصري كان غالباً ما يختار أهم حدث في الأسطورة لتمثيله والتعبير عنه بالصورة، وتزايدت هذه المشاهد المصورة بعد ذلك، ونجد أمثلة واضحة لمثل هذه المشاهد الأسطورية المختلفة في المعابد التي تعود بشكل أخص للعصر اليوناني الروماني، مثل معبد "هيبس"، "دندرة"، "أدفو"، "كوم أمبو"، "فيلة"، و"أسنا"،..... إلخ.

---

[19] **Budge, W.**, *Legends of the Gods, Egyptian Literature*, vol.1 42

[20] راجع: عبد الحليم نور الدين، الديانة المصرية القديمة، الجزء الثالث، القاهرة، 2009، الفصل الثاني.

وسنركز في هذا الفصل كما سبق أن قدمنا على الأساطير الأوزيرية والشمسية. ويرجع ذلك لارتكاز الفكر الديني للمصري القديم بشكل أساسي على ركيزتين هما "العقيدة الأوزيرية"، و"العقيدة الشمسية"، واللذان شكلا معاً القضيبين اللذين سار عليهما قطار العقيدة المصرية عبر مختلف عصورها القديمة، فضلاً عما حققته هذه الأساطير من شعبية وانتشار على مر العصور القديمة، حيث تعتبر الدراما التمثيلية لأسطورة أوزير أقدم مثال لعمل مسرحي عرفته البشرية على الإطلاق، والتي كانت عادة ما تُمثل أحداثها سنويًا في الاحتفالات الخاصة بأوزير في أبيدوس بشكل أخص، وفي مناطق ومدن أخرى بشكل أوسع، وما صاحبها من حضور جماهيري حاشد.

كذلك فإن الأساطير الشمسية، وبالأخص في تعلقها برحلة الشمس اليومية، وارتباط ذلك بأمل المتوفى في مرافقة الشمس في رحلتها اليومية ضماناً للبقاء والخلود في حياة أخروية يأمل فيها كل متوفى، قد جعلت لهذه الأساطير أهمية ومكانة كبيرة لدى عامة الناس.

الأساطير الأوزيرية

وهي تلك الأساطير التي ارتبطت بالعقيدة الأوزيرية، والصراع الطويل بين "حورس" وعمه "ست" على العرش. وهي بذلك اتسمت بطابع سياسي بجانب طابعها الديني الأساسي، وذلك علاوة على اعتبارها مثالاً لقصص وأساطير الصراع بين الخير والشر.

فقد كان "أوزير"، بمثابة مرآة لدورة الحياة في الطبيعة، وذلك من خلال ما عُرف أو حيك عن حياته ومماته، ثم بعثه من جديد، والصراع الطويل الذي صاحب موته وبعثه. وكان لقدم العقيدة الأوزيرية وتأصلها الأثر البالغ في أن حيكت الكثير من الأساطير حولها.

العقيدة الأوزيرية

انتشرت العقيدة الأوزيرية – كما سبق أن تحدثنا في الجزء الأول من كتاب الديانة المصرية القديمة – مع بداية الأسرة السادسة، فقد وردت الإشارة إليه في الكثير من فقرات "نصوص الأهرام"، وصيغ القرابين. وكان الملك المتوفى يتحد معه في العالم الآخر، ويصبح

أوزير. ولم تلبث عقيدته أن امتدت بشكل هائل خلال عصر الانتقال الأول، حيث أصبح كل متوفى عادي يُلقب بـ(أوزير: فلان)، بمعنى (المتوفى: فلان) [21].

وقد ارتبط "أوزير" بالعديد من الاحتفالات والأعياد الدينية، ومن بينها عيد (Prt aAt)، أي: (عيد الطلعة الكبرى، أو: الخروج الكبير)، أو عيد "أوزير" الكبير في "أبيدوس"، وهو احتفال كان يجري في الشهر الأول للفيضان في مطلع العام. وكان اليوم الكبير للعيد هو يوم (22) من نفس الشهر، حيث كان الحجاج يتوجهون إلى "أبيدوس" خلال هذا العيد[22]. كما كانت تجري احتفالات أخرى في بعض العواصم الدينية الكبرى في الدلتا، مثل "بـه" في "بوتو" (تل إبطو، و: تل الفراعين" بمركز دسوق حالياً)، و"سايس" (صا الحجر، بمركز "بسيون" حالياً)[23].

وقد انتشرت عبادة "أوزير" في كافة أرجاء البلاد، وعبد في كل أقاليم مصر، حيث حظي كل إقليم بعضو مقدس من أعضاء "أوزير" بعد أن قتله أخوه "ست"، وذلك وفقاً لأسطورة "أوزير". إلا أن هناك مدينتين رئيستين اشتهرتا كمركزين لعبادة "أوزير" في الدلتا والصعيد، وهما "بوزيرس" (أبو صير بَنا) في الدلتا، و"أبيدوس" في الصعيد[24].

و"بوزيرس" (وهي "چدو") أو "أبو صير بَنَا" كانت عاصمة للإقليم التاسع لمصر السفلى، وتقع جنوب غرب "سمنود" الحالية، حيث حل محل ربها المحلي القديم "عنچتي"، والذي يُعتقد أنه كان رباً ملكاً، استعار منه "أوزير" شاراته (المَذبَّة، والعصا المعقوفة)، ويسري الاعتقاد بأنها كانت الموطن الأصلي لعبادة "أوزير"، والذي انتشرت منه عبادته في أرجاء البلاد بعد ذلك[25].

أما المدينة الثانية فهي "أبيدوس" أو كما تعرف الآن بـ (العرَّابة المدفونة، مركز البلينا، محافظة سوهاج). وقد ظهر ارتباط "أوزير" بها منذ أواخر عصر الأسرة الخامسة، وبداية السادسة؛ حيث استحوذ "أوزير" على صفات ربها المحلي القديم "خنتي-إمنتيو" (أي: إمام الغربيين، كناية عن الموتى في الجبانة)، وارتبط هناك بمنطقة طالما ارتبطت في الأذهان بعد ذلك بأحداث الأسطورة الأوزيرية، وهي منطقة "بِكر" (Pqr)، والتي تعرف الآن باسم "أم الجعاب"؛ وهي المنطقة التي عُثر فيها على مقابر ملوك الأسرتين الأولى والثانية في

---

[21] عبد الحليم نور الدين، الديانة المصرية القديمة، الجزء الأول (المعبودات)، القاهرة 2009، ص104.

[22] عبد الحليم نور الدين، الديانة المصرية القديمة، الجزء الأول (المعبودات)، القاهرة 2009، ص104.

[23] أحمد محمود عيسى، الحج والزيارات الجنائزية والرمزية في المناظر والنصوص المصرية القديمة، رسالة ماجستير غير منشورة، القاهرة 1983، ص134. وانظر الجزء الثاني:الأعياد والاحتفالات.

[24] عبد الحليم نور الدين، الديانة المصرية القديمة، الجزء الأول (المعبودات)، ص105.

[25] Griffiths, J. G., *"Osiris"*, *LÄ* IV, 1989, Col.626.

– عبد الحليم نور الدين، الديانة المصرية القديمة، الجزء الأول (المعبودات)، ص105–106.

"أبيدوس". وقد عُرفت مقبرة الملك "چـــر" منذ عصر الدولة الوسطى بالمعبود "أوزير" كمقبرة له[26].

وقد ارتبط "أوزير" كرب للموتى والبعث في العالم الآخر ببعض الظواهر الطبيعية التي ترمز للتجدد والبعث والإحياء من جديد. فقد رمز "أوزير" إلى خصوبة النيل والتربة، وكـــان للونه الأسود علاقة مباشرة بالتربة وخصوبتها.

وعلى ذلك فإن عقيدة "أوزير" قد نمت من الرب المختص بالخصوبة لارتباطه بالأرض، لمعبود ذي صفات وأدوار متعددة. وقد اغتصب "أوزير" خلال ذلـــك العديـــد مـــن الصـــفات والأدوار التي ارتبطت بأرباب محليين أقدم في أماكن مختلفة، مما كان له الأثر الأكبر في نمو وازدهار عقيدته كإحدى أهم العقائد المصرية على الإطلاق[27].

ولقد استمرت عقيدة "أوزير" أكثر من ألفي عام، منذ أن تأسست فـــي أواخـــر الأســـرة الخامسة، حيث ظهر اسم ودور المعبود من خلال "نصوص الأهرام" أو "النصوص الجنائزية" في مقابر الأفراد منذ الدولة القديمة، واستمرت هذه العقيدة في النمو والازدهار عبر العصور التاريخية، وحتى نهاية التاريخ المصري القديم، حيث حظي "أوزير" بالعديـــد مـــن مراكـــز العبادة[28].

وقد اكتسبت بعض الأماكن أهميتها من خلال ما ورد عن دفن أحد أعضاء "أوزير" بها؛ مثل "أتريب" (في "بنها الحاليـــة)، والتـــي دفـــن فيهـــا قلـــب الإلـــه، و"بيجـــا"، و"إدفـــــو"، و"هيراكونبوليس" (الكوم الأحمر) و"سبنيتيوس" (سمنود)، والتي حظي كل منها بإحدى قـــدمي الإله. وكانت "أبيدوس" و"بوزيريس" (أبو صير بنـــا) هما أكثر الأماكن ارتباطاً بأوزير علـــى النحو الذي تناولناه سلفاً، فضلاً عن الكثير من الأماكن الأخرى التي ورد الإشارة لها تباعاً في إطار أحداث الأسطورة الأوزيرية.[29]

---

[26] عبد الحليم نور الدين، الديانة المصرية القديمة، الجزء الأول (المعبودات)، ص105 – 106.

[27] عبد الحليم نور الدين، الديانة المصرية القديمة، الجزء الأول (المعبودات)، القاهرة 2009، ص108.

[28] عبد الحليم نور الدين، الديانة المصرية القديمة، الجزء الأول (المعبودات)، القاهرة 2009، ص111.

[29] Wilkinson, R., *The Complete Gods and Goddesses of Ancient Egypt*, 122-3.

– عبد الحليم نور الدين، الديانة المصرية القديمة، الجزء الأول (المعبودات)، القاهرة 2009، ص111.

أسطورة أوزيـــر

تعد أسطورة أوزير من أهم الأعمال الأدبية المصرية القديمة، إن لم تكن أهمها علـــى الإطلاق. ترجع أقدم المصادر النصية حول أسطورة أوزير إلى ما يعرف بنصوص الأهـــرام والتي سجلت بداية من أواخر الأسرة الخامسة، إلا أن الجذور الأصلية لهذه النصوص يعـــود بالطبع لفترات زمنية سحيقة، ربما لعصور ما قبل التاريخ وبالطبع قبل معرفة الإنسان للكتابة وشروعه في تدوين أفكاره.

غير أن ما ورد في نصوص الأهرام من ذكر لأسطورة أوزيـــر وأحـــداثها، يصـــعب الاعتماد عليه وحده في تصور وإعادة سرد أحداث الأسطورة، وذلك لعدم ترابط الفقرات التي وردت في هذا الصدد مع بعضها البعض، ولمرورها في كثير من الأحيان بشكل عـــابر فـــي وصف أو ذكر أحد الأحداث المتعلقة بالأسطورة. وعلى كل فإن ما ورد في نصوص الأهرام يعطى فكرة عامة عن الأسطورة بحيث يمكن استكمال أحداثها وملامحها مـــن خـــلال تتبـــع وتجميع ما ورد في كل من نصوص التوابيت، وكتاب الموتى والكتب الدينية الأخرى التـــي يعود أغلبها لعصر الدولة الحديثة، فضلاً عن ما ورد فـــي العصـــور المتـــأخرة واليونانيـــة الرومانية، وما ورد في المصادر اليونانية عن هذه الأسطورة.

ويعد "كتاب الموتى" من أهم المصادر التي أعطت مساحة لأسطورة أوزير وأحـــداثها وذلك ضمن فصوله المختلفة. كذلك ما ورد من سرد وتمثيل لأحداث الأسطورة فـــي أعيـــاد "أوزير" فى أبيدوس، وضمن بعض الطقوس والشعائر اليومية بالعديد من المعابد مثل "دندرة"، "أدفو"، وأخيراً من خلال بعض اللوحات الأبدية الخاصة بالأفراد، مثل لوحة "أغر نفر"[30] من الدولة الوسطى.

وتعد الصورة التي وصلت فيها الأسطورة من خلال رواية المؤرخ اليوناني "بلوتارخ"، القرن الأول الميلادي تحت عنوان "إيزيس وأوزيريس" هي أفضل وأكمل الصور المعروفـــة لهذه الأسطورة، وإن أضفى عليها بعض الملامح والتأثيرات يونانية الطابع.

وتتلخص أحداث هذه الأسطورة في الصراع بين ممثل الخير وممثل الشر، بين "أوزير" و"ست"، ومقتل "أوزير" على يد أخيه "ست"، وتشتيت أشلائه. ثم كيف قامت "إيـــزة" بإعـــادة

[30] **Schaefer, H.,** *Mysterien des Osiris in Abydos*, 1964, 27-34.

تجميع أشلائه وأعضائه وإعادته للحياة من جديد بمساعدة ومساندة من بعض الأرباب، يأتي في مقدمتهما "نبت حت" و"حتحور". ثم حملها منه في ابنه "حورس"، والذي يحمل على عاتقه الثأر لأبيه ووراثة عرشه والدفاع عنه. وتفضيل "أوزير" البقاء في مملكة العالم الآخر وحكمه إياها، وتركه حكم الأرض لابنه ووريثه الشرعي "حورس".

وبخلاف الصراع بين "الخير والشر"، وفكرة "البحث والأحياء"، فإن من أهم ما تركز عليه هذه الأسطورة هو التأكيد على شرعية أوزير في حكمه وورثته لأبيه "رع"، ومن ثم شرعية ابنه "حورس" في العرش من بعده؛ وانعكاس ذلك بالتأكيد على شرعية حكم الملوك كحكم إلهي للبلاد، وحتمية وراثة العرش في سلالة المالك الحاكم، والتي وصفت بأنها سلالة الآلهة[31].

أسطورة الصراع بين "حورس" و"ست"[32]

تعد أسطورة "حورس وست" أو "الصراع بين حور وست" من أهم وأقدم الأساطير الدينية التي عرفتها الحضارة المصرية القديمة على الإطلاق، ولعل ذلك يبدو واضحاً من خلال كثرة الإشارة إليها في المصادر الأدبية والجنائزية المختلفة عبر مختلف العصور. وقد اقترنت هذه الأسطورة بالصراع الأزلي بين الخير والشر، وارتبطت بأحداث أزلية وكونية، كما أنها ذات جذور تاريخية ضاربة في القدم تتعلق بنشأة وشرعية الملكية في مصر القديمة.

وقد ارتبطت بأسطورة "أوزير"، إلا أنها تبدو أقدم منها،[33] إذ إنها تعكس جانباً من الصراع أو التنافس السياسي خلال عصر ما قبل الأسرات بين زعماء مصر السفلى الذين كانوا يحاربون تحت حماية معبودهم "حورس"، وزعماء مصر العليا الذين كانوا تحت حماية

---

[31] راجع: عبد الحليم نور الدين، الديانة المصرية القديمة، الجزء الثالث، القاهرة، 2009، الفصل الثاني.

[32] Chabas, F., *Le calendrier des jours fastes et nefastes de l'année Égyptienne*, Paris 1870; Spiegel, J. *Die Erzählung vom Streite des Horus und Seth in Pap. Beathy I*, Glückstadt-Hamburg-New York, *LÄS* 9,1937; Reich ,N. "*Der Mythus vom Kampafe des Horus mit Set im papyrus Sallier IV*,(ii,6- iii,6), in: *RT 30*, (1908), 210f; *Pap. Sallier* IV; Budge, W., *Hieratic papyrus in British museum*, 2nd series, 1923, pl.90; *Pap. Chester Beathy* I,9,9; Gardiner, A., *Late Egyptian stories*, 37ff; Griffiths, G., *The conflict of Horus and Seth*, Liverpool, 1960; Griffiths, G., 'The interpretation of Horus-Myth of Edfu', *JEA* 44 *(1958);* Alliot, M., *Le culte d'Horus á Edfou au temps des Ptolémées*, Le Caire 1954;.
أدولف أرمان، ديانة مصر القديمة، ترجمة عبد المنعم أبو بكر، القاهرة،ط 1973، ص93 – 94؛ آمال صموئيل أسحق، المشاهد الأسطورية المصورة على الآثار المصرية حتى الأسرة 30، ص 174 وما يليها من صفحات.

[33] **Griffiths , J.G.,** *The Conflict of Horus and Seth* , 1.

معبودهم "ست" رب مدينة "نوبت" في الصعيد. وفي إحدى مراحل الصراع نجح أهل الشـــمال في الاتجاه جنوباً حيث سيطروا على البلاد بأكملها وتم توحيد القطرين واتخذوا من "حورس" معبوداً رسمياً للبلاد.[34]

وهنا تجدر الإشارة إلى أن حوليات الملوك خلال العصور التاريخية قد ذكرت أن زعماء عصر ما قبل الأسرات قد عرفوا بلقب "شمسو حور" بمعنى أتباع حورس، كما أطلق على أرواح "به" وأرواح "نخن" لقب "شمسو حور"، وتتفق الآراء على أنهم كانوا بمثابة الملوك القدامى لهاتين المدينتين الممثلتين لمملكتي مصر العليا والسفلى، مما يشير إلى أن المعبود الصقر "حورس" كان مواكبًا للحياة السياسية للبلاد منذ تلك العصور.

هذا فضلاً عن الإشارة التي وردت في بردية تورين حول فترة حكم الأرباب للأرض والتي انتهت بحكم وريث عرش الإله "جب"، ومن هنا اعتبر الملوك خلال العصور التاريخية بمثابة خلفاء لحورس على الأرض، حيث توحد الملك الحاكم مع "حورس" بينما توحد الملك المتوفى مع (أبيه) "أوزير"[35].

ولعل من الضروري التأكيد على أن كلاً من "حورس" و"ست" كان له دور ومكانة ذات درجة كبيرة من الأهمية في العقائد المصرية وفي الشئون السياسية، فكلا المعبودين كان له نصيب من تقديس وعبادة المصريين، كما كان لهم أدوار فعالة وهامة في العالم الآخر، تتضح من خلال نصوص الأهرام والتوابيت وكتاب الموتى، ولعبا دوراً هاماً في الرحلة اليومية لرب الشمس ضمن طاقم مركبها، كما هو واضح في كتاب "الإمي دوات"، و"البوابات"، وغيرها من الكتب الدينية.

وقد اعتبر كل من "حورس" و"ست" معاً راعيين للملكية – على الرغم مما صورته الأسطورة عن الصراع الدائر بينهما حول أحقيه كل منهما في العرش– ولذلك فقد اقترن اسم "حورس" بشخص ولقب الملك طيلة التاريخ المصري، فالملك هو ممثل "حورس" على الأرض، كما أن "ست" قد شغل مكان الصدارة باعتباره الإله الرسمي الرئيسي للبلاد في بعض فترات التاريخ، وفي أحيان أخرى شارك "حورس" هذه المكانة.

فمنذ بداية الأسرات جسدت النقوش والمناظر انتصار "حورس"، فقد صور الصقر "حورس" على صلاية نعرمر وهو يسحب رؤوس الأعداء بحبل، فضلاً عن تصويره أعلى

---

[34] ***LÄ*** IV, 626.

[35] آمال صموئيل إسحق، المشاهد الأسطورية المصورة على الآثار المصرية حتى الأسرة 30، ص 174.

واجهة القصر (السرخ) طوال عصر الأسرة الأولى، إلا أن الملك "برايب سن" من الأسرة الثانية قد وضع "ست" بدلاً منه أعلى واجهة القصر، ثم جاء "خع سخم وي" بعد ذلك ووضع كلا المعبودين كراعيين للملك، وصورهما معاً فوق (السرخ).

فكلا المعبودين كانا بمثابة شريكين متساويين أو خصمين متكافئين وحاميين للملكية، يتنافسان ويجتمعان وينفصلان، وفي بعض الأحيان لقبا بالأخوين (snwj)، وربما كان هذا اللقب يشير إلى الروابط الأسرية بينهما وأحياناً كان يشار إليهما بالسيدين أو الرفيقين أو المتصارعين، وكان "حورس" يجسد الشرعية، أما "ست" فهو يرمز للفوضى، وعدم الشرعية[36].

وهناك العديد من المناظر التي صورتهما معاً خلال بعض الطقوس أو الاحتفالات، ومنها طقوس تتويج الملك، حيث كانا يثبتان التاج فوق رأس الملك، ومن أقدمها مناظر تتويج الملك أوناس، والملك ببي الثاني، ثم توالت هذه المناظر فيما بعد، ومنها منظر يمثل تتويج الملك رمسيس الثاني صور على جدران معبد أبو سمبل الصغير، ويبدو أنه خلال إجراء الطقوس الفعلية، كان يقوم كاهنان من كبار الكهنة بتقمص دوري "حورس" و"ست"[37].

ويبدو أن الصراع بين حور وست كان صراعاً حتمياً حتى يتم الحفاظ على توازن القوى في الكون، فمنذ عصر الأسرة الأولى اعتبر أن الملك قد استمد قوته وعرشه من السيدين معاً[38].

وقد أشارت العديد من المصادر لهذا الصراع، وترجع أقدم الإشارات له في نصوص الأهرام، ونصوص التوابيت، وكتاب الموتى إلى جانب بعض المصادر الأخرى مثل "بردية اللاهون الرابعة" من الدولة الوسطى وقد كُتبت بالخط الهيراطيقي، و"بردية ساليه الرابعة"، ولوحة الملك "شباكا" من الأسرة الخامسة والعشرين[39].

---

[36] **Pyr.** 204 , 390 , 473 , 683, 835; 135 , 390 (b) , 487, 943 , 1148, 1475, 1735 , 1928, 2099; **Te Velde Hermann**, *Seth*, in: *The Oxford Encyclopedia of Ancient Egypt,* III, Cairo 2001, 269.

[37] **آمال صموئيل إسحق**، المشاهد الأسطورية المصورة على الآثار المصرية حتى الأسرة 30، ص 175.

[38] **Kees , H.,** *Hours und Seth als Götterpaar*. Teil I, Leipzig, 1923, S. 8.

[39] **راجع: عبد الحليم نور الدين**، الديانة المصرية القديمة، الجزء الثالث، القاهرة، 2009، الفصل الثانى.

الأساطير الشمسية

أدرك المصري مدى أهمية العناصر الكونية في استمرار الحياة وتوازنها، وارتباطها المباشر بالبعث والتجدد والأبدية اللانهائية. وكانت الشمس بمثابة أهم هذه العناصر الكونية وأبرزها على الإطلاق، بل إنها أكثر العناصر الكونية تأثيراً بشكل مباشر في الإنسان وحياته، وقد أدرك المصري القديم كل ذلك بفطنة وذكاء بالغين.

فكان منه أن تصور الشمس كمصدر للحياة على الأرض، وأن رحلتها اليومية التي يرها بأم عينه يومياً، تمثل بعثًا وتجددًا يوميًّا، فتصور هذه الرحلة داخل مركبين ارتبط أحدهما برحلة الشمس اليومية في الصباح، وعرف بـ "معنجت"، والآخر برحلتها الليلية، وسمي بـ"مسكتت". وقد تصور العديد من الأرباب في رفقة الشمس اليومية، وعلى ذلك فقد صاغ الكثير من المشاهد والأساطير في إطار هاتين الرحلتين اليومية.

وقد صورت معظم هذه الأساطير رب الشمس بأنه الإله الخالق، وأن شروق الشمس فى الصباح بمثابة تجسيد لبداية الخلق الأولى، وتأكيد على استقرار النظام الكوني والسياسي، وأن غروب الشمس واختفاءها ليلاً بمثابة تجسيد للعالم الخفي ما قبل الخلق، والذي أتى منه رب الشمس ليبعث ويولد من جديد.

وقد اتسمت مخيلة المفكر المصري القديم بالاتساع والخصوبة لحد مكنه من تصوير شروق الشمس وغروبها بصور وأشكال عديدة، وتصوير أحداث رحلته اليومية، وما يواجه من مخاطر وصعاب، يتغلب عليه دائماً للحفاظ على النظام والاستقرار اللازمين للكون.

وقد لعبت الشمس دوراً محورياً في الكثير من الأساطير المصرية والكتب الدينية، مثل: أسطورة "الولادة اليومية للشمس"، أسطورة عين "حورس"، أسطورة عين "رع"، أسطورة هلاك البشرية"، وكتاب الإيمي دوات، كتاب البقرة السماوية، كتابي الليل والنهار، وغيرها من الكتب والأساطير الدينية.

وعن المعبود "**رع**" محور العقيدة الشمسية، فقد كان رباً عالمياً يمثَّل داخل السماء والأرض والعالم السفلي، ارتبط بمعظم أساطير ومذاهب الخلق المصرية القديمة، ولعب دور الأب المقدس، وحامي الملك. ويمكن فهم اللاهوت الواسع المتعلق بالمعبود "رع" في إطار

خمسة أدوار رئيسية لعبها[40]، وهي: "رع" في السماء، "رع" في الأرض، "رع" في العالم الآخر، "رع" كرب خالق، و"رع" كملك، وأب للملك[41].

أسطورة الولادة اليومية للشمس

دارت بعض الأساطير الدينية حول فكرة الولادة اليومية للشمس، أو ولادة رب الشمس كصورة تتكرر يومياً للبعث وتجدد عملية الخلق. وكانت أسطورة الربة "نوت" من أهم الأساطير التي تجسد هذه الفكرة، وذلك بخلاف بعض الأساطير الأخرى.

وكان لأهمية وتأثير الشمس على حياة المصري القديم من إمداده بالنور والضياء، تعاقب الليل والنهار، إعطاء الدفء وغيرها من الفوائد، كان لذلك كله الأثر البالغ في ربطها بشكل أساسي بعملية الولادة والبعث والتجدد في الحياة الأخرى. وقد كان أهم وأكبر مؤيد لهذا الربط وهذه الفكرة هو تكرار ظهور الشمس كل يوم من الشرق واختفاؤها في الغروب، بما أتاح لمخيلته الواسعة أن تسبح في الفضاء وعالم الخيال للوصول لتفسير وتبرير لذلك، وكان أن تصور ذلك في عدد من الأساطير والكتب الدينية.

ولادة الشمس من جسد الربة نوت[42]

لعبت الربة "نوت"[43] دوراً هاماً كربة للسماء، حيث يعبر رب الشمس – في رحلته الليلية– جسدَ هذه الربة كل ليلة بمركبه، بينما تعبر النجوم جسدَها بالنهار. وتبدأ رحلة رب

---

[40] Wilkinson, R., *The Complete Gods and Goddesses of Ancient Egypt*, 205f.
عبد الحليم نور الدين، الديانة المصرية القديمة، الجزء الأول (المعبودات)، القاهرة 2009، ص 226 وما يليها من صفحات.

[41] عبد الحليم نور الدين، الديانة المصرية القديمة، الجزء الأول (المعبودات)، ص 228–231.

[42] ROULIN, G., *Le Livre de la Nuit. Une composition égyptienne de l'au-delà. I^re partie. Traduction et commentaire. II^e partie*, Fribourg (Suisse) - Göttingen, 1996; WELLS, R.A., 'The Mythology of Nut and the Birth of Ra', *SAK* 19 (1992), 305-321; BERGMAN, Jan, Nut-Himmelsgöttin-Baumgöttin-Lebensgeberin, in: *Humanitas religiosa*. Festschrift für Haralds Biezais zu seinem 70. Geburtstag. Dargebracht von Freunden und Kollegen, Stockholm, Almqvist 8 Wiksell, [1979], 53-69; Piankoff, A., 'The sky-goddess Nut and the night-journey of the sun', *JEA* 20 (1934) 57-61.
آمال صموئيل أسحق، المشاهد الأسطورية المصورة على الآثار المصرية حتى الأسرة 30، ص 84 – 93.

[43] Wilkinson, R., *The Complete Gods and Goddesses of Ancient Egypt*, 160-4ff; ROULIN, G., Le Livre de la Nuit. Une composition égyptienne de l'au-delà. I^re partie. Traduction et commentaire. II^e partie, Göttingen, 1996; WELLS, R.A., *SAK* 19 (1992), 305-321; Piankoff, A., *JEA* 20 (1934) 57-61.
عن الربة "نوت"، راجع: عبد الحليم نور الدين، الديانة المصرية القديمة، الجزء الأول (المعبودات)، ص 319–321.

الشمس بالمرور من بين فخذي "نوت" (السماء) داخل جسدها، إلى أن يولد (يشرق) في اليوم التالي من جديد من فم المعبودة.

وقد تمتعت "نوت" بدور عقائدي جنازي حول فكرة إعادة البعث والميلاد لدى المصري القديم، إذ تشير النصوص إلى رغبة المتوفى في أن يصبح نجماً على جسد "نـوت". ووفقـاً لمذهب "عين شمس" في الخلق، فإن "نوت" قد اتحدت مع "جب" لإنجاب "أوزير"، والذي ارتبط بالبعث ودورة إعادة الحياة. وقد لعبت "نوت" دوراً هاماً في إعادة إحياء الملك المتـوفى فـي "نصوص الأهرام"، حيث وردت الإشارة إليها في العديد من الفقرات؛ كما أنها لعبت الـدور ذاته في "نصوص التوابيت"[44].

وقد صورت هذه الأساطير الشمسية في صورة مجموعة من الكتب الدينية، عرفت معاً باسم "كُتـب السمـاء"[45]، وهي مجموعة جديدة من الكتب الدينية ظهرت بعد عصر العمارنة. تقوم أساساً على تمثيل المعبودة "نوت" تنقل الرحلة الليلية للشمس إلى جسدها، ومن ثم إلـى السماء بعد ذلك. الإلهة "نوت" تعطي الميلاد لرب الشمس في الصباح، حيث يمر عبر جسدها، ويُبتلع بواسطة فمها في المساء. ومن هناك فإن رحلته تصبح غير مرئية حتى يعود للمكـان الذي سيشرق منه ثانية. وعلى ذلك فإن إله الشمس سيسافر في نفس المشهد في كتاب العـالم الآخر، وبنفس الأهداف في كلا العالمين السماوي والآخر.

وتتكون كتب السماء من كتابي "النهار" و"الليل" وكتاب الآلهة "نوت"، إضـافة لكتـاب البقرة السماوية، وسوف نتناول هذه الكتب بالدراسة والتحليل في فصل لاحق من هذا الكتاب. وقد وردت بعض التلميحات والإشارات لفكرة ولادة الشمس هـذه فـي نصـوص الأهـرام والتوابيت، قبل أن تتبلور الفكرة أو تصور بشكل كامل في الكتب الدينية التي تعـود لعصـر الدولة الحديثة وما بعدها.

وتدور فكرة ولادة الشمس من الربة نوت، والتي تجسد قبو السماء، والتي عـادة مـا تصور في هيئة امرأة بجسد ممتد يربط بين الأفقين ويمثل السماء، بينمـا تمثـل الأطـراف الأفقين، فرأسها تقع عند الأفق الغربي وساقيها عند الأفق الشرقي. فكان الاعتقـاد أن ربـة السماء كانت تلد رب الشمس يومياً عند الفجر أو الصباح، ليبدأ رحلته فـي السـماء حتـى

[44] عبد الحليم نور الدين، الديانة المصرية القديمة، الجزء الأول (المعبودات)، ص 319-321.

[45] Hornung, E., *The Ancient Egyptian Books of the Afterlife*, translated from Germany by David Lorton, London 1999, pp.112ff.

الغروب، لتعود ربة السماء بابتلاعه ثانية ليمر ويقضي ساعات الليل داخل جسدها، حتى إذا ما حل فجر اليوم الجديد تلده مرة أخرى.

وكان الاعتقاد السائد بأن مصير المتوفى هو نفس مصير رب الشمس، حيث تخيل العقل المصري المفكر بأن المتوفى كان يمر في صحبة رب الشمس داخل جسد الربة نوت ربة السماء ليلاً، ليولد معه في شرق السماء في الصباح التالي، وهو ما عضدته نصوص الأهرام من الدولة القديمة.[46]

"تلده أمه السماء حياً كل يوم مثل رع

فيشرق معه في الشرق، ويغيب (يستريح) معه في الغرب"[47]

نظريات الخلق ونشأة الكون

تدل الشواهد على أنه لم تكن لدى المصريين في عصور ما قبل التاريخ نظرية معينة عن أصل العالم وتكوينه، ولما دخلت مصر مرحلة الاستقرار السياسي مع بداية الأسرات، تعددت النظريات عن نشأة الكون، وأخذت الآلهة الكونية تحتل مكانة سامية في نفوس القوم، وعندئذ أخذ الكهنة والمفكرون يخرجون على الشعب بأفكارهم وتصوراتهم عن الخلق، وقد اختلفت هذه التصورات باختلاف البيئات التي ظهرت فيها، فكان كل مجموعة من الكهنة لإله معين يدعون أن إلههم هو أصل الوجود، ولهذا خلف لنا المصريون القدماء عدة مذاهب سجلوها في وثائقهم، وهي مذهب عين شمس، ومذهب الأشمونين، ومذهب منف ومذهب طيبة.

وكان لاتساع فكر المصري القديم الأثر البالغ في محاولته للتوصل لكيفية نشأة الخلق والوجود. وكان نتاج هذا الفكر متمثلاً في تعدد نظريات الخلق التي خرج بها؛ والتي ارتبطت في الغالب بالعواصم الدينية والسياسية الكبرى، لاسيما هليوبولس، منف، الأشمونين وطيبة. وكان للتطور السياسي ودور الكهنوت دور بارز أيضاً في توجيه هذه النظريات لدعم مكانة معبود أو مجابهة آخر – وليس أكثر وضوحاً مما فعله كهنة رع في هليوبولس بدمج إلههم

[46] **Pyr**. 1835 (a-c).
[47] **Pyr**. 1835 (a-b).

"رع" بأتوم الإله الخالق، أو ما قام به كهنة آمون في طيبة لإقحام آمون في أحد هذه المذاهب وحيك الأساطير حوله لدعم مكانته كإله للدولة.

وقد نشأت هذه المذاهب واحداً بعد الآخر وتنافس أصحابها محاولاً كل فريق منهم إثبات قدم نظريته وتأصلها وربطها بنشأة وخلق الكون، ومن ثم إسباغ هذه المكانة على إلههم ومدينتهم بما يدعم مكانة هذه المدينة ودورها السياسي من جانب ومن جانب آخر يضمن الريادة لكهنتها. وقد صيغت هذه المذاهب في صورة أساطير ودونت في أطوار عديدة وصلنا بعض من نسخها خاصة تلك النسخ التي دُونت في العصر المتأخر.

العالم الآخر

طالما شُغل فِكر المصري القديم بالحياة بعد الموت، وتصور العالم الآخر بكونه موطن الحياة الأبدية التي يأمل في أن تتحقق له، واعتبار العالم الآخر داراً للثواب والعقاب. وقد ظهر ذلك بوضوح وتمييز انفرد به المصري القديم عن غيره من الشعوب القديمة.

وقد كان تصوير العالم الآخر بمثابة بوابة مثالية لإخراج وترجمة الإبداع الفكري والخيالي للمصري القديم في إظهار كافة جوانب هذا العالم الغامض بأدق التفاصيل؛ بداية بتخيله لمكان هذا العالم، وكيفية الوصول إليه، والوسائل التي تساعد المتوفى على اجتياز المخاطر الكثيرة التي تعوقه أثناء رحلته للوصول لمملكة "أوزير" وتحقيق الأبدية والحياة الخالدة. وذلك علاوة على الوصف الدقيق لمناطق هذا العالم، وما يدور فيها من أحداث، والحوارات التي قد تدور بين المتوفى وبين الحراس، والمخلوقات والمعبودات الموجودة في هذه الأماكن. وقد ظهر هذا التصوير غاية في الإبداع في عرض مرئي، مسموع وملموس، أقرب ما يكون للحقيقة منه للخيال.

وقد بدأت الإشارة للعالم الآخر منذ عصر الدولة القديمة في "نصوص الأهرام" بالإشارة للعالم "السماوي الأخروي"، ثم في "نصوص التوابيت" من عصر الدولة الوسطى. وقد اكتملت الصورة في عصر الدولة الحديثة من خلال العديد من الكتب الدينية التي انتشرت منذ الدولة الحديثة وحتى العصر البطلمي.

وهناك الكتب الدينية المختلفة التي أُثريت بها جدران وأسقف المقابر، وزينت بها جوانب وأغطية التوابيت الحجرية والخشبية، وكذلك سُجلت على لفائف البرديات الدينية من مختلف العصور المصرية القديمة. وهذه الكُتب في الواقع تمثل أهم مصادرنا عن طبيعة العالم الآخر كما تصوره المصري القديم، والتي من خلالها نستطيع أن نكون فكرة متكاملة الجوانب

عن طبيعة هذا العالم، ورحلة المتوفى فيه، والصعوبات التي يتوقع مواجهتها هناك أو خلال رحلته، وكيفية التغلب عليها، ومختلف الأماكن التي يمر عبرها.

ومن ثم فقد رأينا ضرورة إعطاء صورة عن هذا العالم ورحلة المتوفى إليه بشكل يُسهل على القارئ والباحث الإلمام ببعض الجوانب الهامة قبل الدخول في الحديث عن هذه الكتب والتي تتسم بالتعقيد والتداخل وصعوبة فهمها بسهولة.

وبدايةً يجب أن نلاحظ أن المصري القديم قد تصور الكون مكوناً من مناطق ثلاثة، هي: السماء والأرض والسماء السفلية (العالم السفلي)، وذلك لأنه تصور السماء (pt) تقبو فوق الأرض (tA)، وأن لها نظيرًا يقع أسفل الأرض يعرف بالسماء السفلى (nnt)، والتي تمثل أحد أسماء تلك المملكة التي تقع أسفل الأرض (مملكة الموتى)، والتي عرفت باسم (dAt)، أو (dwAt).[48]

وبينما يقع عالم البشر الأحياء بين حدود هذا الكون، فهو محدد بالأرض من أسفل وبالسماء من أعلى، وتتم بداخله دورة الحياة اليومية، والتي ترتبط بشروق وغروب الشمس.[49]

ويوجد خلف هذا الكون المياه الأزلية "نون" (nnw)، وهي المحيط المائي المظلم والخامل والممتد إلى ما لا نهاية[50]. وقد مثل هذا العالم – الواقع خارج حدود رؤية البشر وخبرتهم – دوراً هاماً وكبيراً في عقائد المصريين، وارتبط بفكرة البعث والولادة وتجديد الحياة لكل ما يوجد في العالم المخلوق.

وطبقاً لما تصوره المصري القديم وصادقت عليه معتقداته، فإن المجالات الثلاثة للكون هي: مجال السماء، والتي تعتبر مقراً للآلهة، والأرض (مقر البشر)، والعالم السفلي (مقر الموتى)، هي مجالات منفصلة عن بعضها البعض بواسطة حدود يمكن اجتيازها، ولكن في حالات محددة، وبأساليب تبدو نسبياً معروفة للموتى أو ربما أيضاً للنيام وذلك عبر الأحلام التي يستطيع من خلالها النائم أن يجوب هذا العالم، ويختلط بما فيه من آلهة وموتى.[51]

---

[48] Binder. S., "The Hereafter: Ancient Egyptian Beliefs with Special Reference to the Amduat", *BACE* 6 (1995), p. 7.

[49] Allen. J. P., "Genesis in Egypt - The Philosophy of Ancient Egyptian Creation Accounts", *Yale Egyptological Studies* 2, (1988), p. 3.

[50] Binder. S., *BACE* 6, 7.

[51] Rössler-Köhler, U., "Jenseitsvorstellungen", *LÄ III*, 253; Szpakowska, S., *Dreams*, 21.

ولعل من الهام حقاً الوقوف على بعض جوانب هذا العالم الغامض وتصور المصري له، بدايةً من مسمياته، ومكان هذا العالم، أو كيفية الوصول إليه والدخول فيه. بل من الضروري أيضاً وضع تصور لكيفية انتقال المتوفى داخل هذا العالم من منطقة لأخرى، وما يتسنى له من وسائل العبور، وما يعوق تقدمه من عراقيل وعواقب عددها المصري، ووضع في الوقت ذاته وسائل التغلب عليها، إلى أن يصل بذلك لمبتغاه المتمثل في حقول وجنان مملكة "أوزير"، حيث الحياة الأبدية في رفقته والآلهة والأبرار؛ وهذا ما تعرضنا له في خضم الجزء الثالث من كتابنا عن الديانة المصرية القديمة.[52]

العالم الآخر في مخيلة المصري القديم

امتاز تخيل المصري القديم لشكل وطبيعة العالم الآخر بالتباين والغموض الشديد، والذى استند على خياله الواسع في تصور كل ما يحب وما يبغض من أحداث قد تحدث للمتوفى. فكان لاعتقاد المصري في وجود حياة أخروية أبدية، ووجود ثواب وعقاب على ما قدمه في حياته الدنيوية، الأثر الواضح في حرصه على تصوير هذه الحياة الأبدية، والإسهاب في وصف المصير الخالد للمبرئين، وتنعمهم في حقول مملكة "أوزير" مع الآلهة والأرواح الطيبة، والتحذير من مدى سوء العاقبة للمذنبين الذين ينتظرهم مصير غامض مجهول من العذاب والجحيم.

بل إن الأمر بلغ الحد لتصوير كيفية تغلبه على هذه المخاوف والصعوبات أثناء رحلته في العالم الآخر، والتي بدت من خلال الوصف أنها رحلة طويلة محفوفة بالمخاطر، تتطلب الاستعداد والتحصين له بالأعمال الطيبة في الحياة، وحفظ العديد التعاويذ والأسرار لهذا العالم وأماكنه، حتى يستطيع المتوفى أن يعبر في أمان وسلامة، وصولاً لمملكة "أوزير".

وقد اختلفت هذه النظرة من فترة زمنية لأخرى، حيث يتضح من خلال نصوص الأهرام غلبة النظرة التفاؤلية على النظرة التشاؤمية، وإن وجد الاثنان معاً في هذه النصوص، وإن اقتصرت هذه النظرة في حديثه غالباً عن الملوك ورحلتهم، سواء في صحبة إله الشمس، أو في صحبة الأرباب[53]. في حين تجاهلت الإشارة لمصير الأفراد خلال الدولة القديمة.

---

[52] راجع: عبد الحليم نور الدين، الديانة المصرية القديمة، الجزء الثالث، القاهرة، 2009، الفصل الخامس.

[53] **Sander-Hansen**, *Der Begriff des Todes bei den Ägypten*, S.13.

وقد استمرت النظرتان بوضوح أكثر خلال عصر الدولة الوسطى، وفي تصوير هـذا العالم بالحقول الغنية بالثمار وبحيرات الشراب المختلفة؛ بجانب النظرة التشاؤمية. وقد ظهـر ذلك من خلال النصوص الأدبية والدينية التي زاد فيها التعبير عن مصير الموتى (الأفـراد) بشكل كبير، ربما لتضاؤل مكانة الملكية، خاصة بعد الأحداث السياسية لعصر الانتقال الأول، والتي كان لها أبلغ الأثر في تغير نظرة المصري للملكية، وانتقال العديد من المزايا التي كان يتمتع بها الملوك إلى الأفراد.

ومن النصوص الأدبية التي أعطت بعض ملامح العالم الآخر؛ نـص "اليـائس مـن الحياة"، (بردية برلين 3024، الأسرة الثانية عشرة)؛ وأغاني مقبرة الملك "انتف"، والتي حملت نظرة متشائمة. ومن النصوص الدينية؛ مثلت نصوص التوابيت مجالاً واسعاً خصباً أظهر فيه المصري مصير المتوفى الفرد في العالم الآخر، ورحلته للوصول للنعيم والأبديـة؛ بجانـب "كتاب الطريقين" الذي صور المخاطر الشديدة والمرعبة التي تعترض المتـوفى فـي العـالم الآخر.[54]

وقد اكتمل تبلور الصورة في ذهن المصري القديم خلال عصر الدولة الحديثة، وليس أدل على ذلك من كثرة الكتب الدينية التي تتحدث عن هذا العالم بالنصوص والمناظر؛ والتـي تعطي وصفاً تفصيلياً لرحلة المتوفى بدايةً من الموت كمرحلة انتقالية، وكل ما يمر بـه مـن عواقب ومخاطر، وكيفية التغلب عليها، وصولاً لإعطاء تفاصيل دقيقية لما هو داخـل العـالم الآخر ومملكة "أوزير" من مناطق، وما يحدث بداخلها.

وقد أظهرت هذه الكتب وفي مقدمتها "كتاب الموتى"، و"كتاب البوابات"، و"كتاب الكهوف" وكتاب "الإمي دوات" النظرتين التفاؤلية والتشاؤمية حول مصير الموتى. بل وأفسحت مجالاً للحوار بين المتوفى والآلهة وحراس بوابات هذا العالم. وقد استمرت هذه الكتب الدينية بما يتضمنه كل منها من نظرات خلال العصور المتأخرة والعصر البطلمي.[55]

وعلاوة على ذلك ظهرت نظرة تشكيك جديدة خلال العصر المتأخر، حيث لم تعد الرغبة في خلود المتوفى في العالم الآخر هي الهدف أو الطريق الوحيد، إذ يمكن للمرء أن يخلد نفسه بواسطة أعماله على الأرض، والتي تخلد اسمه بالطبع. فيذكر أحد نصوص العصر البطلمي:

---

[54] Cf. Faulkner, R.O., *Coffin texts, translate to English*; Lesko, L.H., *The Ancient Egyptian Book of two ways*, London 1972.

[55] راجع: عبد الحليم نور الدين، الديانة المصرية القديمة، الجزء الثالث، القاهرة، 2009، الفصل الخامس.

إن "تجديد الحياة أمام الذي يموت
تاركاً اسمه (السمعة الطيبة) على الأرض من بعده"[56]

الكتب الدينية

كان لاعتقاد المصري القديم في استمرار الحياة بعد الموت، وأحقية المتوفى في احتياجات الحياة في هذا العالم. وما تعلق بمعتقدات الموت حول نظريات الخلق والوجود ودورة الحياة. وما تعلق منها من أساطير حول علاقة الشمس بهذه العملية في رحلته اليومية في الصباح، أو تلك التي تتم أثناء الليل، حيث تعبر (مركب الشمس) العالم الآخر السفلي من الغرب إلى الشرق كما ذهب المصري القديم؛ أو كون أن هذه الرحلة تتم عبر جسد الإلهة نوت أو عبر المياه الأزلية نون وغيرها من التصورات الفكرية.

وفى إطار إيمان المصري القديم بالحياة الأخرى، وأهمية الوصول لمستقره فيها حيث حقول مملكة "أوزير"، أو تخطي موقف المحاكمة، أو ضمان مرافقة الشمس في رحلتها الليلية ليضمن بذلك الأبدية والحياة الخالدة، خاصة بعد أن أصبحت حقاً مكتسباً للأفراد منذ عصر الدولة الوسطى، وبعد أن كانت حكراً على الملوك فقط في الدولة القديمة.

فقد ظهرت منذ بداية الدولة الحديثة بعض المعتقدات الجنائزية الجديدة والتي تعتبر تطورًا طبيعيًا لنصوص الأهرام من الدولة القديمة ونصوص التوابيت من الدولة الوسطى؛ وتعرف هذه المعتقدات الجديدة باسم **(كتب العالم السفلي، أو كتب العالم الآخر).**[57] وقد أوضح (يان أسمان) أن الهدف الأساسي المرجو من مثل هذه المؤلفات الجنائزية هو إعداد المتوفى وتزويده بالمعرفة الضرورية عن العالم الآخر، وأن مضمون هذه الكتب هو إمكانية استعادة الحياة بعد الموت في منطقة (الدوات) الانتقالية الواقعة بين المياه الأزلية والعالم المخلوق.[58]

وتدور هذه الكتب حول رحلة الشمس خلال العالم السفلي ومعجزة إعادة الميلاد في الصباح والتي تضمنت معظم الأحداث الكونية لدورة الشمس وانتصار النور على الظلام، وما يعكسه من انتصار الخير على الشر بكل صوره، وقد تكررت هذه العملية أو الدورة كل صباح

---

[56] Lexa, *Papyrus Insinger, tome 1er* (Paris 1926), (1.2,12); Lichtheim, M., *Ancient Egyptian Literature, A book of Reading*, II, London, 186.

[57] Hornung, E., *The Ancient Egyptian Books of The Afterlife*, translated from Germany by David Lorton, London 1999; Binder, S., *The Hereafter. Ancient Egyptian Beliefs with Special Refrence to the Amduat*, *BACE* 6 (1995), 8.

[58] Assmann, J., *Death and Initiation in Funerary Religion*, YES 3 (1989), 143.

منذ توقيت خلق العالم[59]؛ كما أن هذه الكتب تعكس حالات التعب، وتجديد الحياة للآلهة أنفسهم، وكذلك أعجوبة التحول من شكل لآخر.[60]

ولم يقتصر تصور المصري للعالم السفلي بكونه مملكة الظلام حيث المـــوت فحســـب، ولكن انقسم إلى ثلاثة أقسام[61]: دائرة الضوء حيث يحيى المتوفى المبرأ؛ دائرة الظلمة المخيفة حيث يعاقب المذنبون؛ الدائرة التي يُدمر فيها الأشرار المذنبون بواسطة حراس البوابات.

وأخيراً وكما سبق القول فإن محور الكتب الدينية التي ظهرت وانتشرت على جدران المقابر، وجوانب التوابيت وأغطيتها أو على لفائف البردى، هو تحقيق الأبدية والخلود للمتوفى بتمكينه من مصاحبة رب الشمس في رحلته، فضلاً عن تزويده بكافة التعاويذ اللازمة لتخطي كل ما قد يواجه من صعوبات وعقابات متنوعة، تصورها خيال المصري القديم نفسه.[62]

Bibliotheca Alexandrina
مكتبة الإسكندرية
صفحة مصريات

[59] **Smith, H.**, BACE 5, p.78.

[60] **Schweizer, A.,** *Seelenführer durch den Verborgenen Raum. Das ägyptische Unterweltsbuch Amduat*. Mit einem Vorwort von Erik Hornung, München, Kösel, 1994, 234.

[61] **Assmann, J.,** *Death and Initiation in Funerary Religion*, 143.

[62] **راجع: عبد الحليم نور الدين**، الديانة المصرية القديمة، الجزء الثالث، القاهرة، 2009، الفصل السابع.